﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى جزاء الذين يخربون مساجد الله ويهدمونها . . ويمنعون أن يذكر فيها اسمه والعذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة أراد أن يذكرنا بأن تنفيذ هذا على مستوى تام وكامل عملية مستحيلة لأن الأرض كلها مساجد . . وتخريبها معناه أن تخرب الأرض كلها . . ولأن الله تبارك وتعالى موجود فى كل مكان فأينما كنتم فستجدون الله مقبلا عليكم بالتجليات .

وقوله تعالى : « فثم وجه الله » . . أى هناك وجه الله . . وقوله تعالى : « والله واسع عليم » . . أى لا تضيقوا بمكان التقاءاتكم بربكم ، لأن الله واسع موجود فى كل مكان فى هذا الكون وفى كل مكان خارج هذا الكون . . ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى : « ولله المشرق والمغرب » لا يعنى تحديد جهة الشرق أو جهة الغرب فقط . . ولكنه يتعداها إلى كل الجهات شرقها وغربها . . شمالها وجنوبها والشمال الشرقى والجنوب الغربى وكل جهة تفكر فيها .

ولكن لماذا ذكرت الآية الشرق والغرب فقط ؟ لأن بعد ذلك كل الجهات تحدد بشروق الشمس وغروبها . . فهناك شمال شرقى وجنوب شرقى وشمال غربى وجنوب غربى . . كما إن الشرق والغرب معروف بالفطرة عند الناس . . فلا أحد يجهل من أين تشرق الشمس ولا إلى أين تغرب . فأنت كل يوم ترى شروقا وترى غروبا.

الله سبحانه وتعالى حين يقول : « ولله المشرق والمغرب » فليس معناها حصر الملكية لهاتين الجهتين ولكنه ما يعرف بالاختصاص بالتقديم . . كما تقول بالقلم

كتبت وبالسيارة أتيت . . أى ان الكتابة هى خصوص القلم والاتيان خصوص السيارة . . وهذا ما يعرف بالاختصاص . . فهذا مختص بكذا وليس لغيره شىء فيه . . ولذلك فإن معنى : « ولله المشرق والمغرب » . . ان الملكية لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها أحد . . وتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس معناه ان الله تبارك وتعالى فى بيت المقدس والاتجاه بعد ذلك إلى الكعبة ليس معناه ان الله جل جلاله فى الكعبة .

إن توحيد القبلة ليس معناه أكثر من أن يكون للمسلمين اتجاه واحد فى الصلاة . . وذلك دليل على وحدة الهدف . . فيجب أن تفرق بين اتجاه فى الصلاة واتجاه فى غير الصلاة . . اتجاه فى الصلاة نكون جميعا متجهين إلى مكان محدد إختاره الله لنا لنتجه إليه فى الصلاة . . والناس تصلى فى جميع أنحاء العالم متجهة إلى الكعبة . . الكعبة مكانها واحد لا يتغير . . ولكن اتجاهنا إليها من بقاع الأرض هو الذى يتغير . . فواحد يتجه شمالا وواحد يتجه جنوبا وواحد يتجه شرقا وواحد يتجه غربا . . كل منا يتجه اتجاها مختلفا حسب البقعة التى يوجد عليها من الأرض . . ولكننا جميعا نتجه إلى الكعبة رغم اختلاف وجهاتنا إلا اننا نلتقى فى اتجاهنا إلى مكان واحد .

الله جل جلاله يريدنا أن نعرف اننا إذا قلنا : «ولِلهِ المشرقُ » فلا نظن ان المشرق إتجاه واحد بل إن المشرق يختلف باختلاف المكان . . فكل مكان فى الأرض له مشرق وله مغرب . . فإذا أشرقت الشمس فى مكان فإنها فى نفس الوقت تغرب فى مكان آخر . . تشرق عندى وتغرب عند غيرى . . وبعد دقيقة تشرق عند قوم وتغرب عند آخرين . . فإذا نظرت إلى الشرق وإلى الغرب بالنسبة لشروق الشمس الظاهرى وغروبها . . تجد ان المشرق والمغرب لا ينتهيان من على سطح الأرض . . فى كل دقيقة شروق وغروب .

وقوله تعالى : « إن الله واسع عليم » . . أى يتسع لكل ملكه لا يشغله شىء عن شىء . . ولذلك عندما سئل الإمام على كرم الله وجهه . . كيف يحاسب الله الناس جميعا فى وقت واحد ؟ قال كما يرزقهم جميعا فى وقت واحد . .

إذن فالله لا يشغله شىء عن شىء . . ولا يحتاج فى عمله إلى شىء . . إنما عمله « كن فيكون » .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى ان له كل شيء فى الكون لا يشغله شيء عن شيء . . أراد أن يرد على الذين حاولوا أن يجعلوا لله معينا فى ملكه . . الذين قالوا إتخذ الله ولدًا . . الله تبارك وتعالى رد عليهم انه لماذا يتخذ ولدا وله ما فى السموات والأرض كل له قانتون . . وجاء الرد مركزا فى ثلاث نقاط . . قوله تعالى : « سبحانه » أى تنزه وتعالى أن يكون له ولد . . وقوله تعالى : « له ما فى السموات والأرض » . . فإذا كان هذا ملكه وإذا كان الكون كله من خلقه وخاضعا له فما حاجته للولد ؟

وقوله سبحانه : « كل له قانتون » . . أى كل من فى السموات والأرض عابدون لله جل جلاله مقرون بألوهيته .

قضية إن لله سبحانه وتعالى ولداً جاءت فى القرآن الكريم تسع عشرة مرة ومعها الرد عليها . . ولأنها قضية فى قمة العقيدة فقد تكررت وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى . . وإذا نظرت للذين قالوا ذلك تجد ان هناك أقوالا متعددة . . هناك قول قاله المشركون . . واقرأ القرآن الكريم :

﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وقول اليهود كما يروى لنا القرآن :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

وقول النصارى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

ثم فى قصة خلق عيسى عليه السلام من مريم بدون رجل . . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف إن هذا إدعاء خطير مستقبح مستنكر وممقوت . . لقد عالجت سورة مريم المسألة علاجا واسعا . . علاجا اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان . . انفعال السموات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله التى تلعن كل من قال ذلك . . بل وتكاد شعورا منها بفداحة الجريمة أن تنفطر السماء أى تسقط قطعا صغيرة . . وتنشق الأرض أى تتمزق . . وتخر الجبال أى تسقط كتراب . . كل هذا من هول ما قيل ومن كذب ما قيل . . لأن هذا الادعاء افتراء على الله . ولقد جاءت كل هذه الآيات فى سورة مريم التى أعطتنا معجزة خلق عيسى . . كما وردت القضية فى عدة سور أخرى .

والسؤال هنا ما هى الشبهة التى جعلتهم يقولون ولد الله ؟ ما الذى جعلهم يلجأون إلى هذا الافتراء ؟ القرآن يقول عن عيسى بن مريم . . كلمة الله ألقاها إلى مريم . . نقول لهم كلنا كلمة « كن » .

لماذا فتنتم فى عيسى ابن مريم هذه الفتنة ؟ والله سبحانه وتعالى يشرح المسألة فيقول :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

قوله كمثل آدم لمجرد مجاراة الخصم . . ولكن المعجزة فى آدم أقوى منها فى عيسى عليه السلام . . أنتم فتنتم فى عيسى لأن عنصر الأبوة ممتنع . . وآدم امتنع فيه عنصر الأبوة والأمومة . . إذن فالمعجزة أقوى . . وكان الأولى أن تفتنوا بآدم بدل أن تفتنوا بعيسى . . ومن العجيب انكم لم تذكروا الفتنة فى آدم وذكرتم الفتنة فيها فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين فى آدم . . وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلى آدم ولكنكم لم تفعلوا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال له الله إن القضية ليست قضية إنكار ولكنها قضية كاذبة . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

أى لن يضير الله سبحانه وتعالى أن يكون له ولد . . ولكنه جل جلاله لم يتخذ ولدا . . فلا يمكن أن يعبد الناس شيئا لم يكن لله . . وإنما ابتدعوه واختلقوه . .

الله جل جلاله يقول : « وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض » . . قوله تعالى : « بل له ما فى السموات والأرض » تعطى الله سبحانه وتعالى الملكية لكل ما فى الكون . . والملكية تنافى الولدية . . لماذا ؟ لأن الملكية معناها أن كل ما فى الكون من خلق الله . . كل شىء هو خالقه بدون معارض . .

ومادام هو خالقه وموجده . . فلا يمكن أن يكون هذا الشيء جزءا منه . . لأن الذى يخلق شيئا يكون فاعلا . . والفاعل له مفعول . . والمفعول لا يكون منه أبدا . . هل رأيت واحدا صنع صنعة منه ؟ الذى يصنع سيارة مثلا . . هل صنعها من لحمه أو من لحم البشر ؟ وكذلك الطائرة والكرسى والساعة والتليفزيون . . هل هذه المصنوعات من جنس الذى صنعها ؟ طبعا لا .

إذن مادام ملكية . . فلا يقال إنها من نفس جنس صانعها . . ولا يقال إن الفاعل أوجد من جنسه . . لأن الفاعل لا يوجد من جنسه أبدا . . كل فاعل يوجد شيئا أقل منه . . فقول الله : « سبحانه » . . أى تنزيه له تبارك وتعالى . . لماذا ؟ لأن الولد يتخذ لاستبقاء حياة والده التى لا يضمنها له واقع الكون . . فهو يحمل اسمه بعد أن يموت ويرث أملاكه . . إذن هو من أجل بقاء نوعه . . والذى يريد بقاء النوع لا يكفيه أن يكون له ولد واحد .

لو فرضنا جدلا إن له ولدًا واحدًا فالمفروض ان هذا الولد يكون له ، . . ولكننا لم نر أولادا لمن زعموا انه ابن الله . . وعندما وقبلما يوجد الولد ماذا كان الله سبحانه وتعالى يفعل وهو بدون ولد ؟ وماذا استجد على الله وعلى كونه بعد أن اتخذ ولدا كما يزعمون . . لم يتغير شيء فى الوجود . . إذن إن وجود ولد بالنسبة للإله لم يعطه مظهرا من مظاهر القوة . . لأن الكون قبل أن يوجد الولد المزعوم وبعده لم يتغير فيه شيء .

إذن فما سبب اتخاذ الولد ؟ معونة ؟ الله لا تضعف قوته . . ضمان للحياة ؟ الله حياته أزلية . . هو الذى خلق الحياة وهو الذى يهبها وهو حى لا يموت . . فما هى حاجته لأى ضمان للحياة ؟ الحق سبحانه وتعالى تنفعل له الأشياء . . أى انه قادر على إبراز الشيء بمقتضى حكمه . . وهو جل جلاله له كمال الصفات أزلا . . وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده . . لذلك فهو ليس فى حاجة إلى أحد من خلقه . . لأنه ساعة خلق كانت له كل صفات القدرة على الخلق . . بل قبل أن يخلق كانت له كل صفات الخالق وبهذه الصفات خلق . . والله سبحانه وتعالى كان خالقا قبل أن يخلق أحدا من خلقه . . وكان رزاقا قبل أن يوجد من يرزقه . . وكان قهارا قبل أن يوجد من يقهره . . وكان توابا قبل أن يوجد من يتوب عليه . . وبهذه الصفات أوجد وخلق ورزق وقهر وتاب على خلقه .

إذن كل هذا الكون لم يضف صفة من صفات الكمال إلى الله . . بل إن الله بكمال صفاته هو الذى أوجد. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى :

(يا عبادي لَوْ أَنَّ أولكُم وَآخِرَكُم وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فى صعيدٍ واحدٍ ، فسألونى ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنسان مَسْألته ما نقص ذلك مِنْ ملكى شيئا إلا كما يَنْقُصُ المِخيطُ إذا غُمس فى البحر . .)[1] .

ثم إذا كان لله سبحانه وتعالى زوجة وولد . . فمن الذى وجد أولا ؟ . . إذا كان الله سبحانه وتعالى قد وجد أولا . . ثم بعد ذلك أوجد الزوجة والولد فهو خالق وهما مخلوقان . . وإن كان كل منهم قد أوجد نفسه فهم ثلاثة آلهة وليسوا إلها واحدا . . إذن فالولد إما أن يكون مخلوقا أو يكون إلها . . والكمال الأول لله لم يزده الولد شيئا . . ومن هنا يصبح وجوده لا قيمة له . . وحين يعرض الحق تبارك وتعالى هذه القضية يعرضها عرضا واسعا فى كثير من سور القرآن الكريم وأولها سورة مريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة مريم)

إنه سبحانه منزه عن التماثل مع خلقه . . لا بالذات ولا بالصفات ولا بالأفعال . . كل شىء تراه فى الوجود . . الله منزه عنه . . وكل شىء يخطر على بالك فالله غير ذلك . . قوله تعالى : « له ما فى السموات والأرض » . . فتلك قضية تناقض اتخاذ الولد لأن كل ما فى السموات والأرض خاضع لله . .

قوله تعالى ؛ « كل له قانتون » . . أى خاضعون ، وهذا يؤكد لنا أن كون الله فى قبضة الله خاضع مستجيب اختيارا أو قهرا لأمر الله .

(١) رواه مسلم فى البر ، ورواه أحمد .

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ﴿١١٧﴾

بعد أن بين الله تبارك وتعالى . . أن قولهم اتخذ الله ولدا هو افتراء على الله . . أراد الحق أن يلفتنا إلى بعض من قدراته . . فقال جل جلاله : « بديع السموات والأرض » . . أى خلق السموات والأرض وكل ما فيها من خلق على غير مثال سابق . . أى لم يكن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جن أو إنسان . . ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد متشابها لهم فى شكل أو حجم أو قدرة . . أى أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نسميه نحن بالقالب .

إن الذى يصنع كوب الماء يصنع أولا قالبا يصب فيه خام الزجاج المنصهر . . فتخرج فى النهاية أكواب متشابهة . . وكل صناعة لغير الله تتم على أساس صنع القالب أولا ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج . . ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هى فى إعداد القالب الجيد الذى يعطينا صورة لما نريد . . والذى يخبز رغيفا مثلا قد لا يستخدم قالبا ولكنه يقلد شيئا سبق . . فشكل الرغيف وخامته سبق أن تم وهو يقوم بتقليدهما فى كل مرة . . ولكنه لا يستطيع أن يعطى التماثل فى الميزان أو الشكل أو الاستدارة . . بل هناك اختلاف فى التقليد ولا يوجد كمال فى الصناعة .

وحين خلق الله جل جلاله الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة . . جعل الخلق متشابهين فى كل شىء . . فى تكوين الجسم وفى شكله فى الرأس والقدمين واليدين والعينين . . وغير ذلك من أعضاء الجسم . . تماثلا دقيقا فى الشكل وفى الوظائف . . بحيث يؤدى كل عضو مهمته فى الحياة . . ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب وإنما تم بكلمة كن . . ورغم التشابه فى الخلق فكل منا مختلف عن الآخر اختلافا يجعلك قادرا على تمييزه بالعلم والعين . . فبالعلم كل منا له بصمة أصبع وبصمة صوت يمكن

أن يميزها خبراء التسجيل . . وبصمة رائحة قد لا نميزها نحن ولكن تميزها الكلاب المدربة . . فتشم الشيء ثم تسرع فتدلنا على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر . . وبصمة شفرة تجعل الجسد يعرف بعضه بعضا . . فإن جئت بخلية من جسد آخر لفظها . وإن جئت بخلية من الجسد نفسه اتحد معها وعالج جراحها .

وإذا كان هذا بعض ما وصل إليه العلم . . فإن هناك الكثير مما قد نصل إليه ليؤكد لنا أنه رغم تشابه بلايين الأشخاص . . فإن لكل واحد ما يميزه وحده ولا يتكرر مع خلق الله كلهم . . وهذا هو الإعجاز فى الخلق ودليل على طلاقة قدرة الله فى كونه .

والله سبحانه وتعالى يعطينا المعنى العام فى القرآن الكريم بأن هذا من آياته وأنه لم يحدث مصادفة ولم يأت بطريق غير مخطط بل هو معد بقدرة الله سبحانه . . فيقول جل جلاله :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الروم)

هذا الاختلاف يمثل لنا طلاقة قدرة الله سبحانه فى الخلق على غير مثال . . فكل مخلوق يختلف عمن قبله وعمن بعده وعمن حوله . . مع أنهم فى الشكل العام متماثلون . . ولو أنك جمعت الناس كلهم منذ عهد آدم إلى يوم القيامة تجدهم فى صورة واحدة . . وكل واحد منهم مختلف عن الآخر . . فلا يوجد بشران من خلق الله كل منهما طبق الأصل من الآخر . . هذه دقة الصنع وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « بديع » . . والدقة تعطى الحكمة . . والإبراز فى صور متعددة يعطى القدرة . . ولذلك بعد أن نموت وتتبعثر عناصرنا فى التراب يجمعنا الله يوم القيامة . . والإعجاز فى هذا الجمع هو أن كل انسان سيبعث من عناصره نفسها وصورته نفسها وهيئته نفسها التى كان عليها فى الدنيا . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته فى الإيجاد قد خلقنا .. وبطلاقة قدرته فى إعادة الخلق يحيينا بعد الموت .. بشكلنا ولحمنا وصفاتنا وكل ذرة فينا .. هل هناك دقة بعد ذلك ؟.

لو أننا أتينا بأدق الصناع وأمهرهم وقلنا له : اصنع لنا شيئا تجيده . فلما صنعه قلنا له : اصنع مثله . إنه لايمكن أن يصنع نموذجا مثله بالمواصفات نفسها ؛ لأنه يفتقد المقاييس الدقيقة التى تمده بالمواصفات نفسها التى صنعها . إنه يستطيع أن يعطينا نموذجا متشابها ولكن ليس مثل ماصنع تماما . لكن الله سبحانه وتعالى يتوفى خلقه وساعة القيامة أو ساعة بعثهم يعيدهم بمكوناتهم نفسها التى كانوا عليها دون زيادة أو نقص . وذلك لأنه الله جل جلاله لايخلق وفق قوالب معينة ، وإنما يقول للشىء : كن فيكون .

تقول الآية الكريمة « بديع السموات والأرض إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

« وكن » وردت كثيرا فى القرآن الكريم .. وفى اللغة شيء يسمى المشترك .. اللفظ يكون واحدا ومعانيه تختلف حسب السياق .. فمثلا كلمة قضى لها معان متعددة ولها معنى يجمع كل معانيها .. مرة يأتى بها الحق بمعنى فرغ أو انتهى .. فى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة البقرة)

ومعناها إذا انتهيتم من مناسك الحج .. ومرة يقول سبحانه :

﴿ فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَآ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة طه)

والمعنى إفعل ما تريد .. وفى آية أخرى يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأحزاب)

والمعنى هنا أنه إذا قال الله شيئا لا يترك للمؤمنين حق الاختيار . . ومرة يصور الله جل جلاله الكفار فى الآخرة وهم فى النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت .

واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

لِيَقْضِ علينا هنا معناها يميتنا . . ومعنى آخر فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة ابراهيم)

أى لما انتهى الأمر ووقع الجزاء . . وفى موقع آخر قوله سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة القصص)

قضى الأجل هنا بمعنى أتم الأجل وفى قوله تعالى :

﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يونس)

أى حكم وفصل بينهم .. وقوله جل جلاله :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الإسراء)

بمعنى أعلمنا بنى إسرائيل فى كتابهم .. إذن « قضى » لها معان متعددة يحددها السياق .. ولكن هناك معنى تلتقى فيه كل المعانى .. وهو قضى أى حكم وهذا هو المعنى الأم .

إذن معنى قوله تعالى : « إذا قضى أمرا » .. أى إذا حكم بحكم فإنه يكون .. على أننا يجب أن نلاحظ قول الحق: « وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن » .. معنى يقول له أن الأمر موجود عنده .. موجود فى علمه .. ولكنه لم يصل إلى علمنا .. أى أنه ليس أمرا جديدا .. لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قال : « يقول له » .. كأنه جل جلاله يخاطب موجودا .. ولكن هذا الموجود ليس فى علمنا ولا نعلم عنه شيئا .. وإنما هو موجود فى علم الله سبحانه وتعالى .. ولذلك قيل أن لله أمورًا يبديها ولا يبتديها .. إنها موجودة عنده لأن الأقلام رُفِعَتْ ، والصحف جفت .. ولكنه يبديها لنا نحن الذين لا نعلمها فنعلمها .



﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ١١٨

الحق سبحانه وتعالى حين قال : « الذين لا يعلمون » . . أى لا يعلمون عن كتاب الله شيئا لأنهم كفار . . وهؤلاء سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله . . ومعنى أن يكلمهم الله أن يسمعوا كلاما من الله سبحانه . . كما سمع موسى كلام الله .

وماذا كانوا يريدون من كلام الله تبارك وتعالى . . أكانوا يريدون أن يقول لهم الله إنه أرسل محمداً رسولا ليبلغهم بمنهج السماء . . وكأن كل المعجزات التى أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ـ وعلى رأسها القرآن الكريم ـ لم تكن كافية لاقناعهم . . مع أن القرآن كلام معجز وقد أتى به رسول أمى . . سألوه عن أشياء حدثت فأوحى الله بها إليه بالتفصيل . . جاء القرآن ليتحدى فى أحداث المستقبل وفى أسرار النفس البشرية . . وكان ذلك يكفيهم لو انهم استخدموا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آية كذبوا بها وطلبوا آية أخرى . . والله سبحانه وتعالى قد أبلغنا أنه لا يمكن لطبيعة البشر أن تتلقى عن الله مباشرة . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

إذن فالبشر حتى المصطفى من الله والمؤهل للتلقى عن الله .. لا يكلمه الله إلا وحيا أو إلهام خاطر أو من وراء حجاب كما كلم موسى .. أو يرسل رسولا مبلغا للناس لمنهج الله .. أما الاتصال المباشر فهو أمر تمنعه بشرية الخلق .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « أو تأتينا آية » .. والآيات التى يطلبها الكفار ويأتى بها الله سبحانه وتعالى ويحققها لهم .. لا يؤمنون بها بل يزدادون كفرا وعنادا .. والله جل جلاله يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فالآيات التى يطلبها الكفار ليؤمنوا لا تجعلهم يؤمنون .. ولكن يزدادون كفرا حتى ولو علموا يقينا أن هذه الآيات من عند الله سبحانه وتعالى كما حدث لآل فرعون .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

وهكذا فإن طلبهم أن يكلمهم الله أو تأتيهم آية كان من باب العناد والكفر .. والحق سبحانه يقول : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » .. فبنو إسرائيل قالوا لموسى أرنا الله جهرة .. الذين لا يعلمون قالوا لولا يكلمنا الله .. ولكن الذين قالوا أرنا الله جهرة كانوا يعلمون لأنهم كانوا يؤمنون بالتوراة .. فتساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. لذلك قال الله تبارك وتعالى : « تشابهت قلوبهم » .. أى قلوب أولئك الذين كانوا خاضعين للمنهج والذين لا يخضعون لمنهج قد تشابهت بمنطق واحد .

ولو أن الذين لا يعلمون قالوا ولم يقل الذين يعلمون لهان الأمر . . وقلنا جهلهم هو الذى أوحى إليهم بما قالوا . . ولكن ما عذر الذين علموا وعندهم كتاب أن يقولوا أرنا الله جهرة . . إذن فهناك شيء مشترك بينهم تشابهت قلوبهم فى الهوى . . إن مصدر كل حركة سلوكية أو حركة جارحة إنما هو القلب الذى تصدر عنه دوافع الحركة . . ومادام القلب غير خالص لله فيستوى الذى يعلم والذى لا يعلم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » . . ما هو اليقين ؟ هو استقرار القضية فى القلب استقراراً لا يحتمل شكا ولا زلزلة . . ولا يمكن أن تخرج القضية مرة أخرى إلى العقل . . لتناقش من جديد لأنه أصبح يقينا . . واليقين يأتى من إخبار من تثق به وتصبح أخباره يقينا . . فإذا قال الله قال اليقين . . وإذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه حق . . ولذلك من مصداقية الإيمان أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه . . عندما قيل له إن صاحبك يقول إنه صُعد به إلى السماء السابعة وذهب إلى بيت المقدس فى ليلة واحدة . . قال إن كان قد قال فقد صدق .

إن اليقين عنده نشأ من إخبار من يثق فيه وهذا نسميه علم يقين . . وقد يرتقى الأمر ليصير عين يقين . . عندما ترى الشيء بعينك بعد أن حُدثت عن رؤية غيرك له . . ثم تدخل فى حقيقة الشيء فيصبح حق يقين . . إذن اليقين علم إذا جاء عن إخبار من تثق به . . وعين يقين إذا كان الأمر قد شوهد مشاهدة العين . . وحق يقين هو أن تدخل فى حقيقة الشيء . . والله سبحانه وتعالى يشرح هذا فى قوله تعالى :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾

(سورة التكاثر)

هذه هى المرحلة الأولى أن يأتينا علم اليقين من الله سبحانه وتعالى . . ثم تأتى المرحلة الثانية فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾

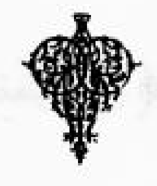
(سورة التكاثر)

أى أنتم ستشاهدون جهنم بأعينكم يوم القيامة .. هذا علم يقين وعين يقين .. يأتى بعد ذلك حق اليقين فى قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمن عافاه الله من أن يعاين النار كحق يقين .. إنه سيراها وهو يمر على الصراط .. ولكن الكافر هو الذى سيصلاها حقيقة يقين .. ولقد قال أهل الكتاب لأنبيائهم ما يوافق قول غير المؤمنين .. فاليهود قالوا لموسى : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .. والمسيحيون قالوا لعيسى : « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » قال : «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » .. وهكذا شجع المؤمنون بالكتاب غير المؤمنين بأن يطلبوا رؤية الله ويطلبوا المعجزات المادية .



﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

هنا لابد أن نلتفت إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يخبرنا عن قضية من فعله . يأتى دائما بنون العظمة التى نسميها نون المتكلم .. ونلاحظ أن نون العظمة يستخدمها رؤساء الدول والملوك ويقولون نحن فلان أمرنا بما هو آت .. فكأن العظمة فى الإنسان سخرت المواهب المختلفة لتنفيذ القرار الذى يصدره رئيس الدولة .. فيشترك فى تنفيذه الشرطة والقضاء والدولة والقوات المسلحة إذا كان قرار حرب .. تشترك مواهب متعددة من جماعات مختلفة تتكاتف لتنفيذ القرار .. والله تبارك وتعالى عنده الكمال المطلق .. كل ما هو لازم للتنفيذ من صفات الله سبحانه وتعالى .. فإذا تحدث الله جل جلاله عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تبارك وتعالى وتعالى يقول « إنا » :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ولكن حين يتكلم الله عن ألوهيته وحده وعن عبادته وحده يستخدم ضمير المفرد .. مثل قوله سبحانه :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة طه)